

مئوية ميكلوش رادنوتي

أيتها الغيمة الليلية الحارسة أبسطي جناحيك علينا



تحتفل المجر بالذكرى المئوية لولادة الشاعر ميكلوش رادنوتي (1909-1944) هذه السنة، وينسّق متحف بتوفي الأدبي البرنامج الاحتفالي بالتعاون مع ثانوية رادنوتي التطبيقية التابعة لجامعة بودابست للعلوم. وسيُنظم المتحف معرضاً عن رادنوتي يفتتح في نيسان، وسيكون "رادنوتي ولوركا" محور المهرجان الصيفي للمتحف هذه السنة، بسبب اشتراك رادنوتي في مهرجانات الدفاع عن الجمهورية الإسبانية التي اقيمت في باريس وقتذاك، ولتمثال مصير الشاعرين، فكلاهما قتلته الفاشية.

رادنوتي من أرق شعراء اللغة المجرية، حمل معه آلامه منذ البداية، إذ فقد أمه وشقيقه التوأم يوم ولادته، وفقد أباه وهو في الحادية عشرة فتكفل خاله تربيته. ولد لعائلة يهودية مثقفة متوسطة الحال انصهرت في المجتمع المجري، ولم يشفع له تكثله لاحقاً في التخلص من القوانين المعادية لليهود، فالنازية حاربت اليهود كعرق "يلوث" الدم الأري "النقي"، مثلما حاربت العجر وأبادتهم.

مال إلى الأدب على رغم دراسته التجارة وصناعة النسيج نزولاً عند رغبة خاله التاجر. ثم درس في جامعة العلوم في سغد الأدب المجري والفرنسي (1930)، حيث اهتم به استاذُه القس الكاثوليكي والشاعر شاندر شيك بعدما انتبه إلى موهبته. حاز شهادة الدكتوراه عام 1934 بأطروحة عن الكاتبة والشاعرة المجرية مارغت كافكا (1880-1918) (لا علاقة لها بالكاتب التشيكي الشهير فرانز كافكا سوى التشابه في الاسم)، فبدأ النقاد والأدباء ينتبهون إليه بسبب أهمية تلك الأطروحة. كان رادنوتي من الجيل الثالث لكتاب مجلة "الغرب" البارزين، على رغم بعده عن رئيس تحريرها ميهاي بابيتش الذي كان يتهرب من السياسة بعكس رادنوتي. يسجل له قيامه بتهئية أشعار أتيليا يوجف (1905-1937) غير المنشورة للطباعة وإصدارها. يقول الباحث لايوش سيگتي عن شعره: يغلب عليه الخير والإلفة والتوق إلى التعامل الإنساني.

بعد سيطرة هتلر على الحكم في ألمانيا وبدء اضطهاد اليساريين والديموقراطيين والأعراق غير "الأرية"، ظهرت عنده النزعة المتمردة ضد الإضطهاد والميل إلى تعزيز قيم الإنسانية إلى جانب الخوف من المصير الشخصي (الموت). عبّر عن هذه النزعات في شعره في البداية بالأساليب التعبيرية والطليعية والسوريالية، ألا أنه عاد إلى الجذور الكلاسيكية والأشكال الشعرية المغلقة بعدما تصالح مع مصيره، وتعالى عليه.

نُقل خلال الحرب العالمية الثانية إلى العديد من الأماكن للقيام بأعمال الخدمة تحت الحراسة المسلحة، فتنقل بين المعامل والمناجم وجبهات القتال في المجر وأوكرانيا و صربيا. قتلته النازيون في 9 تشرين الثاني 1944 مع 22 من رفاقه عند قرية أبدا الواقعة في غرب المجر ودفنهم في قبر جماعي بعدما عجزوا عن مواصلة مسيرتهم المجاهدة وهم يساقون إلى ألمانيا سيرا بعد تصفية معسكرات الاعتقال في صربيا، حيث عثر على جثمانه لاحقاً وفي جيب معطفه مفكرة فيها أشعاره التي كتبها في معسكرات الاعتقال، عرفت باسم "مفكرة بور" (نسبة إلى معتقل بور في صربيا حيث أمضى الشاعر الأشهر الأخيرة من حياته). صدرت أشعاره الأخيرة لاحقاً عام 1946 ضمن ديوان كان يعدّه قبل مقتله بعنوان "سما مزبده". وتتميز أشعاره التي كتبها في معسكرات الاعتقال هذه ببنيته الكلاسيكية وتمازج العناصر الشعرية والشوق إلى فائي، زوجته الحبيبة، والبيت والوطن وذكريات الحياة الطبيعية البعيدة المنال، بعناصر الموت والخراب وفقدان الإنسانية السائدة حوله. انتهى من كتابة قصيدته المؤثرة "المسيرة المُجاهدة" في 15 أيلول 1944، وقد كتبها بما يعرف في الأدب الأوروبي بالنظم الأسكندراني، الذي اشتهر عبر أشعار النيبلونغ الألمانية (القرن 13) وشعر التروبادور المتأثر بأوزان الشعر العربي.

اشتهرت قصيدة "لا أعرف..." المترجمة هنا بما تحمله من مشاعر حب الوطن، ويعتبرها النقاد بين أجمل القصائد المجرية في هذا المجال. يعقد رادنوتي فيها مقارنةً بينه وبين طيار يأتي لقصف وطنه. تعتمد القصيدة على التناقض بين

النصار

كان رادنوتي يعتبر نفسه شاعراً مجرياً، وهكذا اعتبره زملاؤه الشعراء والأدباء في مجلة "الغرب" وغيرها، ودافعوا عنه في مقابل الاضطهاد الذي تعرض إليه بسبب قوانين اليهود. كتب في مفكرته عن انتمائه المجري في نص رسالة بعث بها إلى أحد أصدقائه، نترجم منها هذه المقاطع:

"... هناك ثلاث "صور عائلية" على جدار غرفتي. نسخة من لوحة تمثل أران [1817-1882]، ونسخة لوحة تصور كازينتسي العجوز [1749-1831]. يسألني عن صورة كازينتسي كل زواري "غير المقربين"، وكذلك عن صورة أران: "هل هو عمك؟" أو "من أقربائك؟". نعم – أحببهم عندها، أران وكازينتسي. وهم حقاً عمائي. مثلهما مثل قريبي بالاشتا [1554-1594] الذي غير معتقده، والبروتستانتيين اللوثريين برجنبي [1776-1836] وبتوفي [1823-1849]، والبروتستانت الكالفيني كلتشي [مؤلف النشيد الوطني المجري، 1790-1838] والكاثوليكين فرشماتي [1800-1855]، وبابيتش، أو اليهوديين أرنو سيپ [1884-1953] وميلان فشت [1888-1967] إذا أردت الإقتراب من عصرنا. والأسلاف؟ هم هوراس الذي أراه بعين برجنبي، كذلك وبالدرجة نفسها سليمان اليهودي والملك داود صاحب المزامير، أشعيا أو يسوع، متى أو يوحنا الخ، لدي أقارب لا يعدون. لكنهم لا يقتصرون فقط على سليمان وداود وأشعيا وأرنو سيپ أو فشت! هناك أقارب بعيدون وقريبون. لم أقل بهذا شيئاً جديداً عليك. لم أنكر يهوديتي قط. لكني لا أشعر بنفس يهودياً، لم أحصل على تربية دينية، لا أحتاج إليها، لا أمارسها، وأعتبر العرق، الدم، الجذور، الألم القديم الذي يعيش في الأعصاب كلها هراء، وهي لا تحدد "نفسيتي" و"روحيتي" و"شاعريتي". يهوديتي هي "مشكلة حياتي"، لأنها من صنع الظروف والقوانين والعالم. أنا شاعر مجري، وها قد عدت أسلافي وأقاربي ولا يهمني ما هو رأي رئيس الوزراء، أو ماروتي-مايزلر أو فيا أو أندره شوش. يمكن هؤلاء التبرؤ مني، أو القبول بي، أما "قومي" أنا فلا يصرخون بي من بين رفوف الكتب: أخرج أيها اليهودي القذر، بل تنفتح أمامي أرجاء وطني، ولا يوقع في الشوك جرحاً أكبر مما يوقع في غيري، ولا تقف الأشجار على أطراف أصابعها لتمنعني عن بلوغ ثمارها. لو حصل ذلك فسوف أنتحر، لأنني لا أستطيع العيش بخلاف ذلك، ولا أستطيع الإيمان بشيء خلاف ما أؤمن به. وهذا ما أشعر به اليوم أيضاً في 1942، بعد خدمة إجبارية لثلاثة أشهر، وتمضية اسبوعين في معسكر العقوبات (لا تضحك عليّ، أعلم أنك اشتركت في الحرب، لكن ذلك كان شيئاً مختلفاً، لم يكن مذلاً)، مُبعداً عن الأدب حيث يتراكم الآن شويرون لا يصلون كعب قديمي، وفي جيبي شهادات جامعية لا تنفع ولم تستعمل، ولن تستعمل في الأيام والأشهر والسنين المقبلة. وإذا قتلوني؟ حتى هذا لن يجعلني أفكر على نحو مغاير".

نتمنى أن يكون الاحتفال بمئوية رادنوتي لائقاً بهذا الشاعر الكبير وبرويته الإنسانية المتعالية على العنف والحرب والعرق، على رغم تنامي التناقضات في المجتمع المجري وتصاعد التطرف وانتشار نظرية المؤامرة ومعاداة اليهود والعجبر، وإلى درجة أقل الكسينوفوبيا؛ فالمئوية هي تذكير بما يؤول إليه التطرف والعنصرية وعقالية العقاب الجماعي، ومنااسبة للوقوف في وجه كل هذه الظواهر التي أنجبت الايديولوجيا القومية – الاشتراكية (تسمى اختصاراً وبكل بساطة: النازية). وما أشبه اليوم بالبارحة، عندما يغض العالم النظر عن وضع شعب كامل في معسكر اعتقال كبير، والمتسبب به هم أحفاد ضحايا الأمس، فوق ذلك.

من أعماله المنشورة في حياته

تحية وثنية (1930)، أغاني الرعاة الجدد (1931)، الريح المتعافية (1933)، أغنية الزنجي الذي ذهب إلى المدينة (1934)، الهلال (1935)، تابع سيرك، إيها المحكوم بالإعدام! (1936)، الطريق المنحدر (1938)، شهر التوأم (1940)، أشعار مختارة 1930-1940 (1940)، التقويم (1942).

من ترجماته

مختارات أبولينير (بالإشتراك مع إشتفان فاش) (1940)، قصص لافونتين (1942)، في أعقاب اورفيوس (مختارات شعرية، 1943)، كارونغا، سيد الموتى (قصص من أفريقيا السوداء، 1944).
ثائر صالح

النصار

Nem tudhatom...

لا أعرف...

لا أعرف ما تعنيه قطعة الأرض هذه لغيري،
هي لي وطن مولدي، هذا البلد الصغير الذي يحاصره
اللهيب، عالم طفولتي الذي يهددني بعيدا.
منه نميت، كالغصن الضعيف من جذع الشجر
وأتمنى أن يعود جسدي إلى ترابه يوما.
هذا وطني. وإذا تجت أكلة ما،
عند قدمي، فأنا أعرف اسمها وزهرها،
أعرف أين مقصد السائرين في الطريق،
وأعرف ما يعنيه الألم القاني المنهمر
من جدران المنازل في الغسق الصيفي.
لكنه خريطة من يطير فوقه بالطائرة،
لا يعرف أين سكن فرُّشمارتي الشاعر،
ما تخبئه له هذه الخريطة؟ معملاً ومعسكراً،
لكنها عندي برجاً، حقلاً أليفاً، جندياً، ثورا،
هو يرى في ناظوره معملاً وحقلاً مبدوراً،
بينما أرى أنا كذلك العامل يجهد في شغله،
الغابة، مزرعة الفواكه الغناء، الكروم والمقابر،
وأرى بين القبور أمّاً تنتحب بصمت،
وما يبدو من فوق سكة حديد أو معملاً يجب تدميره،
هو كوخ عامل السكك وأمامه يقف العامل
وحوله أطفال صغار، ملوحاً بعلم أحمر،
وفي باحة المعمل يتمطي كلب الكوموندر؛
وهناك المتنزه، وأثار أقدام العشق القديم،
طعم القبل في فمي بين العنب والعسل،
في طريقي إلى المدرسة على حافة الرصيف
تعثرت بحجر كي لا أمتحن ذلك اليوم،
ها هو ذا الحجر، لكن الحجر لا يرى من العلو،
ليس هناك من جهاز يستطيع تمييز هذا كله.
إذ أننا مذنبون، مثل باقي الشعوب،
ونعرف بم أخطأنا، أين وكيف،
لكن يعيش هنا أيضا عمال، وشعراء، أبرياء
وراضعو أثداء، سوف يكبر عقلم،
ينير نفوسهم، يحفظونه وهم يختبئون في ملاجئ معتمة،
قبل أن يشير السلم إلى وطننا من جديد بأصبعه،
على كلمتنا المخنوقة هم من سيجيب يوماً بكلمة غضة.
ابسطي جناحك الواسعين علينا أيتها الغيمة الليلية الحارسة.

17 كانون الثاني 1944

النصار

Erőltetett menet

المسيرة المُجهدَة

مجنونٌ من يهوي على الأرض لينهض ويخطو ثمانية،
ويحرك كاحلاً وركبة كأنه الألم الهائم،
وعلى رغم ذلك يسير في الدرب كمن يرفعه جناح
عبثاً يناديه جانب الطريق، لا يجروُ على البقاء ليرتاح،
وإن سألته لماذا؟ لربما يجيبك قائلاً
تنتظره الزوجة وميتة أكثر حكمة وجمالاً.
لكن الطيب مجنون، لأن فوق الديار هناك
ما بقي غير الريح الحارقة تعصف منذ حين،
جدار البيت استلقى، انكسرت شجرة الخوخ،
ليل الوطن مقشعر من شدة الخوف.
أه لو أستطيع أصدق: لا أحمل كل ما هو أبهى
في قلبي فحسب، بل ثمة دارة أعود إليها،
ليتها لا تزال هناك! لبيت نحلة السلم تظنّ
في الطارمة العتيقة المنعشة، بينما يبرد مرّبي الخوخ الساخن،
وصمت آخر الصيف يتشمس في الحدائق الغافية،
والفاكهة تتمايل بين أغصان الأشجار عارية،
ليت قائي تنتظرني بشقرتها عند جدار الأيكة القاني،
والصبح البطيء يمدّ خطوط الظلال بكل تأنّ، -
لكن، ربما لا يزال ممكناً بعد! كم هو مكتمل الليلة البدر!
لا تذهب أبعد، صديقي، نادِ عليّ! فأنهضُ على الفور!

بور، 15 أيلول 1944

A bujdosó

المختبئ

أطلُّ عبر الشبّاك على جبل،
الجبل لا يراني؛
أختبئ، يتسرّب من قلبي الشعر،
مع أن الأمر سيّان؛
وأرى لكن لا أفهم ما هي هذه النعمة التي
عفا عنها الزمان:
كما في الماضي، يتدلى قمرٌ في السماء
وتزهر أشجار الكرز.

9 أيار 1944

ترجمة ث. ص.